شاعرية الفرس فى الشعر القديم

الفرس فى المساق الاسطورى

بقلم الدكتور / عاطف جودة نصر

شاعرية الفرس فى الشعر القديم

الفرس فى السياق الاسطورى

بقلم الدكتور/ عاطف جوده نصر
الاستاذ المساعد بكلية الاداب
جامعة عين شمس

شغفت الجماعة الانسانية منذ زمن بعيد بتسمية المستأنس من الحيوان . وهى تسمية تستند الى ضروب من القصد ومجموعة من البواعث التى يئول بعضها الى علاقة الانسان بالحيوان الاليف فى سياق الطوطمية الغابرة ، بوصفها من أقدم أشكال العبادة والتقديس .

وترجع طائفة من هذه البواعث الى مرحلة الطفولة ، اذ لاحظ المشتغلون بالدراسات السيكولوجية أن علاقة الطفل بالحيوان المستأنس تتراوح بين الحب والصداقة والالفة وبين الهلع والتوقى والمخاوف الدفينة . وربما تعزى التسمية الى ملاحظة نوع من التشابه الخلقى ، أو اشتراك كليهما فى القانون المعنوى للحياة .

وأمامنا حيال هذه الظاهرة فروض يزكى بعضها تاريخ الثقافة ، منها الفرض المتمثل فى " الطوطمية الحيوانية " . وفى سياق الفروض السيكولوجية عرض فرويد Freud آراء فريزر Frezer وجارسيلاسو دى لافيجا Carcilaluso De Lavega وماكس موللر Muller وريناخ Reinach ودوركايم E. Durkheim وسبنسر Spencer وانتهى الى تفسير مبنى على أن علاقة الطفل بالحيوان أشد ماتكون شبها بعلاقة الانسان البدائى (١) .

وفى تفسير هذه العلاقة ذهب فرويد الى أن الطفل يعزو الى الحيوان دون أدنى تردد قدرا كاملا من "المساواة" ومن المحتمل أنه يشعر بأن الحيوان أشد قربا اليه من البالغين ، وعد فرويد ماسماه " فوبيا الحيوان " Animal Phobia من الفوبيات والحالات العامة التى تنتمى الى الامراض العصابية (٢) .

واستند فى تعليل شعائر الفداء والتضحية عند الساميين الى ماأنتهى من آراء روبرتسون سميث R.Smith اذ كانت التضحية بالقربان الحيوانى على المذبح من شعائر الاديان القديمة ، ولايخفى أن الانسان كان يضحى للإله بما يعتمد عليه فى حياته ومعيشته . ولم يكن ثم حظر وتحريم الافيما يمس لحم القربان (٣) .

وقد تعزى عبادة الحيوان والطير الى اعتقاد أنها شديدة الشبه بالانسان ، وما لبث الاعتقاد المؤسس على التماثل أن آل الى ضرب من التناسخ metamorphism (٤)

ومن هذه الفروض مايتمثل فى الارواحية animism من حيث هى قانون يتجلى فى مساق أسطورى نابئة تفسير المعنى الرمزى لشعيرة القربان الحيوانى ، ومنها ما نظفر به عند البيولوجيين من ذوى النزعات الفلسفية .

وقد عرض فريزر تفسيرا للمساق الاسطورى آل عنده الى نظريتين تحللان المغزى الرمزى للتضحية بالحيوان . وترتبط النظريتان عند المصريين القدماء ، وفى طقوس الاغريق ولدى القبائل البدائية فى افريقيا والهند ، بتوكيد القسم وقطع العهود واخذ المواثيق وابرام الاحلاف . وتتمثل النظريتان فى الجزاء والتطهير ، ويئول مغزاهما الرمزى الى قانون الشبيه المنتج للشبيه فى بنية من السحر التشاكلى ، والى الانتماء الى حياة الحيوان الروحية (٥) .

وقد كان الفرس كغيره من الحيوان إذ ارتبط فى الوجدان الانسانى بأشكال متعددة من العبادة والمعتقدات والتشكيل الخرافى .

ولدينا فى هذا السياق واقعتان ، ورد ذكر إحداهما فى الشعر العربى القديم ، أما الأخرى فمذكورة فى سورة (ص) من القرآن الكريم . وتتعلق الواقعة الأولى باسم فرس لعبد القيس كانت تعرف بهراوة الاعزاب ، وقد ورد فيها شعر منسوب لعامر ابن الطفيل وهو قوله :

يهدى أوائلهن كلّ طمرّة جرداء مثل هراوة الاعزاب

وذهب ابن الكلبى إلى أن العزاب كان يركب هذه الفرس ويغزو عليها ، فإذا تأهل أعطوها عزبا آخر (٦) . وربما كانت هذه التسمية تقصد بواسطة الصورة المستخلصة من التشبيه ، الى الايحاء بدلالات الطول والصلابة والاندماج والتماسك ،وهى دلالات موضوعة فى سياق اسلمه يحقق ضربا من التكريس ، وربما ترجع التسمية الى أسباب تتعلق بالتصعلك والغارة، اذ كان بين الجاهليين من حبس الحبوس لتكون وقفا على الفقراء والمحتاجين وابناء السبيل ومنهم من ساعد الفقراء والصعاليك بتقديم الخيل لهم للاغارة والتكسب ، كالذى يروى عن الريان بن حويص العبدى ، من أنه جعل فرسه هراوة وقفا على الاعزاب من قومه ، فكانوا يغزون عليها ويستفيدون المال ليتزوجوا وكانوا يتداولونها فضربت مثلا فقيل أعز من هراوة الاعزاب . وذكروا أنها جاءت سابقة أربع عشرة سنة ، فتصدق بها على العزاب يتكسبون عليها فى السباق والغارات (٧) .

ويبدو من الاشارة الواردة فى سورة (ص) أن الخيل كانت مما يضحى به عند الشعوب السامية وقد كان سليمان عليه السلام يملك خيلا كثيرة . فلما استعرضها أعجبته والهته عن ذكر الله فتقرب بضرب أعناقها وعراقيبها ، فكان أن عوضه الله عنها بالريح السخى

كثيرا ما يستعيرها الشعراء للخيل .

وفى نشيد الانشاد المنسوب لسليمان الحكيم شبهت المرأة بالفرس وصورت النساء بأتابى من الخيل التى تجر عربة فرعون ، وهى صورة تكاد توحى بأن الفرس كانت معادلا رمزيا للمرأة فى الوجدان الانسانى القديم (٨) . وكثيرا ماتشبه المرأة بالمهرة التى هى ولد الرمكة والفرس . قالت حميدة بنت النعمان بن بشير لزوجها روح بن زنباع :

وَهَلْ أنا الا مُهْرَةٌ عربيةٌ   سليلةُ أفراس تجللها بَغْلُ (٩)

لقد كان الفرس فى بداية أمره حيوانا وحشيا متأبدا فى القفار والأحراش والبرارى ، لايركب ولا ينتفع به . ثم مالبث أن استؤنس فى الشرق الادنى وأوربا . وتؤكد هذه الحقيقة الدراسات المختلفة فى مجال التطور وأصل الانواع وذلك من خلال الربط بين التكيف البيئى وبين تطور وظائف الاعضاء . والحق أن ابن الكلبى التفت الى شئ من هذه الحقيقة . غير أنه ساق ما يتعلق بتحول الفرس من التوحش الى الاستئناس مشربا بشيات من الخيال والاساطير على غرار ما يفعل القصاص والاخباريون والنسابون .

وقد ذكر ابن الكلبى فى الخبر الذى رفعه لابن عباس أن الخيل كانت وحوشا لاتركب وأن اسماعيل بن أبراهيم هو أول من ركبها ، اذ اخرج الله له من البحر مائة فرس أقامت ترعى بمكة فرسنها وأنتجها وركبها . وتذكر روايات أخرى أن داود جمع ألف فرس كلها حسان عتاق ، وأن سليمان ورثها فيما ورث ، وأحبها وأثنى عليها ونحرها ومنعها ، وفى طائفة أخرى من الروايات ، ركب الخيال الشعبى صورة لخيل ذوات أجنحة ، ذكر ابن الكلبى أنها أخرجت من البحر لسليمان . وتدل هذه الرواية الاسطوريةعلى العلاقة الرمزية بين الفرس فى سرعة عدوه ، وما يبسط أجنحته فى الفضاء من الطير ، وهى علاقة احتفل بها الشعراء وعبروا عنها فى أنساق من اللغة الاستعارية (١٠) .

وللفرس فى موروث الثقافة الانسانية رصيد متنوع ، ففى الأدب الهوميرى كانت بعض الشخصيات تبدو فى صورة أفراس ، ومن الالهة التى صورتها الاساطير اليونانية على هذه الهيئة ، ديميتير Demeter الهة الخصب ، وبوسيدون Poseidon اله البحر ، وأثينا Athena وأفروديت Aphrodite وكرونس Cronas وظهر آلهة آخرون مثل هليوس Helios يقودون عربات تجرها الخيل .

وارتبط الفرس فى الموروث الاسطورى بالرعد والبرق ، فاعتبر الرعد ترجيعا لوقع حوافر الخيل السماوية ، أو ترديدا لقعقعة عربة الآلهه ، وعد البرق فى هذا السياق الاسطورى ، السياط التى تلهب ظهور الخيل كيما تستخرج أقصى ما عندها من عدو. وتذكر بعض روايات الاساطير اليونانية ، أن الماء تدفق من حوافر الفرس المجنح بيجاسوس Pegasus ، وهو فى هذه الروايات رمز الالهام الشعرى ، وحامل الرعد والبرق من الاله زيوس Zeus ونشأ عن ارتباط الفرس فى الوجدان الاسطورى بالرعد والخصوبة ، أن عدت الخيل ولا سيما البلق منها ، أفضل ما يقدم من قربان . ويشير تحليل المحتوى الاسطورى الى أن الفرس فى الوجدان الجماعى ، رمز جوهرى للخصوبة ساوقته شعائر متعدده تسهم فى تنمية هذا المعنى ، منها أنهم كانوا فى أوربا كثيرا مايدفنون فرسا حيا ليحول دون موت الخيل أو الاعتداء عليها بالنهب والسرقة . ومن الموروثات الشعبية انبثقت تفسيرات لرؤية الخيل يقظة أو نوما ، منها أن من يسرى الخيل فى نومه يعد سعيدا مجدودا لاسيما اذا حلم بالبلق منها ، وأنها مزودة بقدرة على رؤية الاشباح ، بل انها قد تبدو أحيانا فى صورة هذه الاشباح ، وتذكر بعض الحكايات الشعبية المتوارثة أن الخيل تولدت من البيض ، وفى طائفة أخرى من هذه الحكايات تتكلم الخيل فلاتقول الا الحق ، وربما ظهر الشرير أحيانا فى هيئة فرسية (١١) .

وعند بعض الشعوب القديمة عدت الخيل بمثابة قربان شمسى ، وذلك أنهم كانوا يضحون بها اما بذبحها واما بقذفها فى الماء ، من أجل أن يتجدد للشمس اشراقها وتوهجها الذى يمنح الحياة . وارتبطت بالفرس عند كهان الآلهة الرومانية فى العصور القديمة ضروب من التحريمات ، كأن يحظر على الكاهن أن يركب فرسا ، فضلا عن أن يباشره باللمس .

وتحكى الروايات الاسطورية أن فيربيوس Viribus أو هيبوليتس Hipelytus أول ملوك الغابة المقدسين فى منطقة أريسيا Aricia أردته الخيل قتيلا . وتبدو هذه الاسطورة — على حد مايرى فريزر — اختراعا يبرر عبادة ملك الغابة بوصفه تجسيدا للخضرة والخصوبة والوفرة ، كما يبرر فى مساقات أخرى منع الخيل من دخول الغياض وبرغم أن هذه الاسطورة أكثر حداثة من العادة المتبعة ، فانها تقدم تصورا للسبب الجوهرى الذى من أجله يحظر على الافراس أن تدخل الغابة .

وقد أشار فريزر فى الغصن الذهبى الى ضروب من القربان الحيوانى الذى عد بمثابة تشخص للاله ذاته ، وذكر من طقوس الرومان القديمة ، أنهم كانوا يضحون بفرس فى منتصف شهر أكتوبر من كل عام ، تقربا للاله مارس Mars ليحقق لهم وفرة المحاصيل

والفلال ، لذلك كانت رأس الفرس تقطع وتزين بخيوط تنتظم أوراق النبات ، أما الذيل فكان يحمل بعد قطعه الى بيت الملك ، وكانوا يحتفظون بدم الفرس القربان حتى يحل اليوم العشرون من شهر أبريل ، ومتى حل هذا اليوم مزج عذراوات الالهة فستار به نار الموقد عند الرومان ، دم الفرس بدماء عجول كانوا يضحون بها قبل ذلك بستة أيام وكان هذا المزيج الدموى يوضع على الرعاء فيجففونه ويستخدمونه فى تبخير القطعان (١٢) .

ومما يؤكد أن التضحية بالخيل كانت لدى الشعوب القديمة شعيرة شمسية ، اعتقاد الاغريق أن الشمس تعبر السماء فى عربة ، ولذا كان سكان جزيرة رودس الذين عدوا الشمس الاله الرئيسى عندهم ، يهبونها كل عام عربة وأربعة من الخيل ، يلقون بها فى البحر مستعين بها الشمس فى حركتها الدائبة ، وربما كان هناك دوافع مماثلة تكمن وراء تقديم ملوك يهودا الوثنيين العربات والخيول الى الشمس ، وتقديم أهالى اسبرطة والفرس الخيول بوصفهما قرابين للشمس (١٣) .

ويرتبط الفرس فى تاريخ الثقافة العربية بطائفة من الحكايات والمعتقدات الشعبية التى تمزج الحقيقة بالخيال والواقع بالوهم ، وينبث هذا الطابع فى مؤلفات الجاحظ والدميرى والقزوينى وغيرهم من المهتمين بدراسة الحيوان .

وقد ذكر الجاحظ من عجائب الخيل أنها تحلم وتحتلم كبنى الانسان ، وأنها تشول فى الروئ بالحصون ، وأنهامن حيوان الجنة ، وأن وقع أقدامها يستخرج الضباب من جحورها وأن عمر بن عبدالعزيز كان اول من نهى الناس عن حمل الصبيان على ظهور الخيل قائلا : تحملون الصبيان على الجنان (١٤) .

ومن قبيل الروايات الشعبية اشارة التوحيدى الى ان الفرس الذى يعلق عليه شئ من أسنان الذئب يكون سريع الجرى ، وأن الفرس اذا وطئ أثر وطء الذئب ، ارتعد وخرج الدخان من جسده ، وأن انثى الخيل الحامل متى وطئت أثر الذئب بحافرها أجهضت حملها (١٥) .

ويتحرك الفرس عند الدميرى فى مساقين يضمان الحديث عن خواصه وتعبيره فى الحلم ، وكلاهما تحكمه موتيفات فلكلورية ، يئول بعضها الى البيطرة والطب الشعبى ، ويرجع بعضها الآخر الى منهج له خصائصه وسماته ، يفسر العلماء المسلمون بواسطته الرؤى والأحلام .

أما الخواص فلم يترك المهتمون بالحيوان شيئا من أعضاء الفرس الا علقوا عليها أهمية ، وكشفوا فية عن خاصية علاجية ، فسنه اذا علقت على صبي سهل طلوع أسنانة بلا الم ، وإن وضعت تحت رأس من يغط فى النوم انقطع غطيطه ، ولحمه يطرد الرياح وعرقة يطلى بة عانة الصبي وابطه فلا ينبت فيهما شعر ، وهو سم قاتل للسباع والثعابين جميعا ، واذا أخذت شعرة من ذنب الفرس وجعلت على باب بيت لم يدخلة بق مادامت الشعرة ، ورماد حافره اذا خلط بزيت وجعل على الخنازير أبرأها واذا سقيت امرأه لبن فرس وهى لا تعلم وجامعها زوجها من ساعتها حملت باذن الله ، وان شربتة بالعسل صارت مباشرتها لذيذه ، وزبل الفرس اذا جفف وسحق وذر على الجراحات قطع دمها ، وان كحل به البياض العارض فى العين أزاله . وان دخن به أخرج الولد من البطن .

أن الموتيفات الشعبية التى يتحرك الفرس فى مساقاتها ، قد نسجت لهذا الحيوان عالما من الأضداد ، فالفرس من حيوان الجنة ، غير أنة برغم نسبته الى نشأة الفراديس ربما ظهر فى صورة شبحية ، مخيفة ، بل ربما تحول الأشرار من الناس الى صورة فرسية ، وطبيعى أن ترتبط هذه المعتقدات بعقيده أخرى أعم تتمثل فى القدرة على التناسخ .

والفرس حيوان خير لما فيه من ألفة واستئناس ، غير أن النهى عن حمل الصبيان عليه يوم الحلبه ، ورد منسوبا لعمر بن عبد العزيز ، لان الأفراس جن تخبل وتمس الصبية بالتخبط . والفرس الى هذا كله حيوان معيون ، يصيبة الحدة بالأذى من حيث يعلمون أو لا يعلمون . ومن أجل هذا المعتقد كان الجاهليون يعوذون الخيل ويعلقون فى أعناقها التمائم لتدرأ عنها السوء وعلى هذا الحد يخرج قول سلمة بن الخرشب الأنمارى :

تُعوذُ بالرّقى من غيرِ خَبْلٍ وتُعقدُ فى قلائِدِها التَّميمُ

ويفسر لنا هذا المعتقد بعض الألقاب التى كان العرب يطلقونها على الخيل فهم قد يسمون الفرس الشوهاء من تسمية الشئ بضده ، أو المطاس لأن العرب كانوا يتطيرون من العطاس .

وتعد الأحاديث الضعيفة مصدرا غنيا للتعرف على التركيبات الشعبية لهذا الحيوان وقد نقل الدميرى فى حياة الحيوان شيئا من هذه الاحاديث التى ذكر فيها أن الشيطان لا يخبل أحدا فى دار فيها فرس عتيق ، وأن الفرس العربى يؤذن له كل يوم بدعوتين يقول : اللهم كما خولتنى من خولتنى فاجعلنى من أحب ماله اليه . وفى طائفة أخرى من الأحاديث يتحرك الفرس فى عالم من الاضداد والمتقابلات . ففى حديث مالك عن الزهرى عن سالم وحمزه ابنى عبد الله بن عمر عن ابيهما عن الرسول علية السلام :

ان يكن الخير فى شئ ففى ثلاث المرأه والدار والفرس . وفى رواية أخرى الشؤم ثلاث ، المرأة والدار والفرس (١٦) .

والحق أن ما ذكر عن التطيب بالخيل ومن تعبير صورها الرمزية فى الاحلام ... وم فى الوجدان الاسلامى باتجاه له آصرة تربطة بقانون أعم فى الثقافة القديمة يتمثل نقل الخواص عن طريق التشاكل السحرى ، وفى أن الجزء يقوم مقام الكل و تفسر ... ه القوانين الزائفة الكيفية التى آل الفرس معها الى عضين فى الطب الشعبى وفى ... ويل اللغوى الشكلى للاحلام .

ومنهج الدميرى كمنهج سلفة ابن سيرين فى تفسير الاحلام ، لا يقدم نظرة شمولية ... ينطلق من مبادئ سيكولوجية وحقائق فسيولوجية ، ولا يتأسس كما هو الحال عند ... سيين المعاصرين على نظرية فى اللاشعور الفردى أو الجماعى .

ويبين هذا الجدول المنحنى التعبيرى لأحلام الخيل فى تراث الثقافة ... ربيه (١٧) . :

الصورة	دلالتها الرمزية
الحامل ترى فرسا	تلد فارسا
مطلق رويه الفرس	رجل وتجارة وشريك
من رأى فرسا مات فى يده	موت من ينسب الية الفرس من الولد أو المرأه أو الشريك .
الفرس الابلق	أمير مشهور
الاسود والادهم	المال
الاصفر	المرض
الاشقر	يدل على دين وحزن وقيل فتنه
الاشهب	يعبر برجل صاحب قلم لانه سواد فى بياض
الكميت	يدل على القوه واللهو أو الحرب والضرب
من ركب فرسا وأجراه حتى عرق	يدل على أنه يركب امرا فيه هوى نفسى وتلف مال
من نزل عن فرسه ولم يرجع اليه	يعزل ان كان واليا
كثافة شعر الذنب	زيادة المال والاولاد وكثرة الجيش ان كان سلطانا
قطع ذنب الفرس	لا يخلف ولدا أو يموت اولاده وان كان سلطانا ذهب جيشة
الفرس الخصى	خادم
أكل لحم الفرس	نيل ثناء حسن واسم صالح
من نازعه فرسه	خرج عليه عبد .

ان التفسير الاسلامى لهذه الصورة لا يخلو من جرثومة الرمز ، غير انها رمزيـ
لا تستند كما هو الحال فى المذاهب السيكولوجية المعاصرة الى اللاشعور الفـــــردى
الجمعـــــى والتعبير الاسلامى على هذا النحو فية ما فى النقل والمأثور الدينى من اتجـ
قوى الى التوقيف الذى يكاد المرء معه يظفر بضرب من التصنيفات الثابتة الموضوعة فى
شارط ، فكلما رأى الحالم هذه الصورة او تلك ، كان تعبيرها على هذا النحو او ذالك
لا يتعداه ،، ولا يتجاوزه . ولم يلتفت المعبر الاسلامى فى احلام الخيل الى طبيعـ
الحلم وما تتميـز بة من تركيب وتعقيد ، على أن ضروب التأويل المتنوعـه تشى بـ
المعبرين اجتهدوا فى استخلاص التناظر الرمزى فى اطار التداعيات اللغوية والعلاقـــــ
الاجتماعيـــــــه .

الفرس بين النسب والتسمية

يتميز الحيوان ومن بينه الفرس بالقدرة على الادراك الحسي ، مما أتاح للمعنيين بدراسة الكائنات الحية امكانية التصنيف في اطار الذكاء النسبي ، والحديث عما يبدى بعض الحيوان ضاريا ومستأنسا من قابلية للتدرب والتعلم بواسطة التجربة وترابطات الاقترانات الشرطيه .

وربما أنكر بعض الدارسين الحياة على الحيوان . وهو أنكار مداره على أن الغرائز تشهد بالآليه . والغريزه لدى الحيوان عميا . ويعلل الحسيون الغريزه بأنها ثمرة التجارب الفردية وعادة مكتسبة بالتفكير ، ابتداء من أبسط احساس . ثم حدث أن سقط عنها الشعور كما يسقط عن كل عادة .

وهذا عينه مذهب القائلين بالتطور ، اذ استندوا الى أن جهاد الحيوان لحفظ بقائه دفعه الى التلاؤم والتكيف مع الوسط البيئي ، وكان الفعل المكسى أول محاوله لتحقيق هذا التلاؤم ، وتأصل هذا الفعل بالتكرار وما لبث أن صار عادة متوارثة .

وانتقد الذين عارضوا الماديين والحسيين هذه الآراء وانتهوا الى أن خروج المتنوع من المتجانس ، وائتلاف الكثير في واحد باتفاق ومصادفة أمر محال . واذا كانت الغريزة ضرورية لحفظ الحيوان ، فكيف تأتي له أن يحيا قبل اكتسابها ؟ على أن الغريزه عند هؤلاء ليست من باب ما هو جبرى لأنها قابلة لضروب من التنوع والتعديل . ومن العبث وغير المعقول ألا تدل الاعضاء الحاسة والجهاز العصبى فى الحيوان على حياة تشهد بها ما يبديه من علامات معرفة حسية ، ويشهد بها ادراكه الموضوعات التى تلبى حاجاته .

وهذه العلامات غير مكتسبة بالتفكير . والغريزة جزء من ماهية الحيوان الضرورية لتركيبة ، وليست حياة النفس الحيوانية صورة قائمة بذاتها ولكنها متعلقة بالمادة فى وجودها وفى أفعالها . وللحيوان حياة وسطى بين النبات والانسان وهو يشترك مع النبات فى الحياة المغتذية النامية ، ومع الانسان فى الحياه الحساسة (١٨) .

والفرس من بين هذه الكائنات حيوان تطور من التوحش فى الصحراوات والبرارى الى الاستئناس والتكيف . وتاريخ علاقته بالانسان يبدو فى الوقت ذاتة تحديدا للحوار الذى نشأ بينة وبين الفرس ، متمثلا فى ضروب من الترويض والتفهم لحاجات هذا الحيوان ولغشه وسلالاتة . وفى الوقوف على ألوانه وشياتة وأعماره وأدوائة وبيطرته . ولا يجد القارئ اتساعا وغنى فى الاشتقاق والتعبير والدلاله مثلما يجد فى اللغه العربيه التى تنوع فيها معجم الخيل تنوعا يدعو الى الاعجاب .

ولقد ظل الوجدان العربى معنيا فى العصور كلها بتمحيص أنساب الخيل ووضع المشجرات الجينولوجية التى تتبعوا من خلالها أصولها واقتفوها . ومما ذكرابن الكلبى فى الانساب أن العرب كانت ترتبط الخيل فى الجاهلية والاسلام معرفة بفضلهاوما جعل الله فيها من العز ، وأنهم كانوا يكرمونهاويؤثرونها على الأهلين . وقد نوه بها التنزيل ،وأثنى ، الرسول صلى الله عليه وسلم عليها . وفضل الخيل فى السهمان على أصحابها ، فجعل للفرس سهمين ولصاحبة سهما ، وجعل لها سبقة وراهن عليها وتراهن عليها أصحابة . وفى كتاب أنساب الخيل عد ابن الكلبى مائة وسبعة وخمسين فرسا سوابق فى الجاهلية والاسلام تبدأ سلسلة الانساب عنده بالازديين وتنتهى ببنى عامر .

وفى التشجير الجنيولوجى لأنساب الخيل ، تبدو نقطة البدء وهى تشير الى تأثير يهودى ، وذلك أن الازديين من أهل عمان استوهبوا سليمان بن داود فرسا من افراس أبية وسموه زاد الراكب . وبالاستطراق الذى يعرفه العرب أمكن الحفاظ على خلوص النسب ونقاوة الدماء ، ولا يبعد أن يكون ابن الكلبى وهو أخبارى غير مأمون وغير ثقة فى كل ما يروى ، قد دلس فى شئ منهذه الأنساب تتعلق بالعصبية القبلية .

ويبين الرسم التخطيطى التالى تولد كرائم الخيل بالاستطراق المعروف : (١٩) .

الازديون
زاد الراكب
↑
بنو تغلب
الهجيس
↑
بكر بن وائل
الديناري
↑
بنو عامر
سبل

الديناري
↑
اعوج
↑
ذو العقال
↑
من بنات ذى العقال

الورد — فرس حمزه بن عبدالمطلب

الحذفاء — من خيل غطفان بن سعد

إن انساب الخيل تثير الحديث عن الأنساب فى مساق الآلهه القديمة وفى مساق الافراد والقبائل . أما أنساب الآلهة وأجيالها وتواريخها فأمر لا نكاد نعرفة عند الجاهليين فى عصور تعدد الأرباب ، وذلك أنهم لم يولوها من العناية والتقصى ما

أولوا أنساب الحيوان وأنساب القبائل والأفراد • ولا يعدو ما ورد فى هذا السياق أن
يكـون شذرات متفرقة ولا نكاد نظفر فى مساق الآلهة التى عبدها الجاهليون بأنسا
وأجيال على نحو ما نجد فى أنساب الآلهة المصرية القديمة والسومرية والأكادية واليونانية

وكان للاسلام فى عصور الرواية والتدوين أثر قوى فى تصديع الوثنية الجاهلية ،
فلم يعن الكتاب عند الحديث عن أديان العرب بوضع أثبات لانساب الأرباب • ونـ
ما نجد فى هذا المجال أقاصيص ساذجة وروايات يسيرة تخلو من الصراع ومن التعقيـ
كما تخلو مـن الطابـع التاريـخـى •

وأين الروايات الخاصة بالزهرة والثريا وسهيل والشعرى العبور والغميصاء مـ
القصص الدرامى الذى يصور أجيال الآلهة فى مصر القديمة ؟ وأين هذه الارباب مـ
ثيوجونية سومر وأكاد ؟ وأين هى من أنساب الآلهة اليونانية التى فصلها هسيود ؟ و
لم يول الجاهليون أنساب الآلهة كبير عناية ، لقد أولوا أنساب القبائل والأفراد اهتما
متميزا تشهد له التقسيمات الجوهرية التى تتسلسل تنازليا فى ست طبقات تضم الشعـ
والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة ، كما تشهد له المدونات التى خلفـ
الجنيولوجيون من طرق الروايات المتعددة (٢٠) •

ولعل السياق يسمح بأن نوازن بين أنساب الأفراد وأنساب الخيل ، ولن يغـ
عن هذه الموازنة الاحتجاج بأنها من قبيل القياس الفاسد لاختلاف المقيس والمقيس عليـ
اذ تظل امكانية الموازنة قائمة ، بحيث يتأتى قياس نسق من العلاقات على نسق آخـ
مادامت العلة والغاية واحدة فى النسقين •

ويزيد هذه الموازنة قوة ، المعجم اللغوى للجماعة بوصفه دلالات تتناول الحـ
فى شتى تجلياتها ومسالكها • وتتمثل العلة المشتركة بين النسقين فى عمليـات
التثبت والتوثيق التى تتجه الى ضرب من تحقيق التجانس الدموى • وتبدو هذه الغايـ
طبيعية فى مجتمع تنحل علاقاته الى بنية طبقية تظاهرها الاشكال العصبية فى سياقهـ
القبلى والعرقى •

وكان طبيعيا أن تحدد درجة النقاء الدموى ، معايير يحكم بموجبها على الأفـرا
والعلاقات الاجتماعية ، ويميز بواسطتها بين السلالات الخالصة والسلالات المشوبـ
غـير النقيـة •

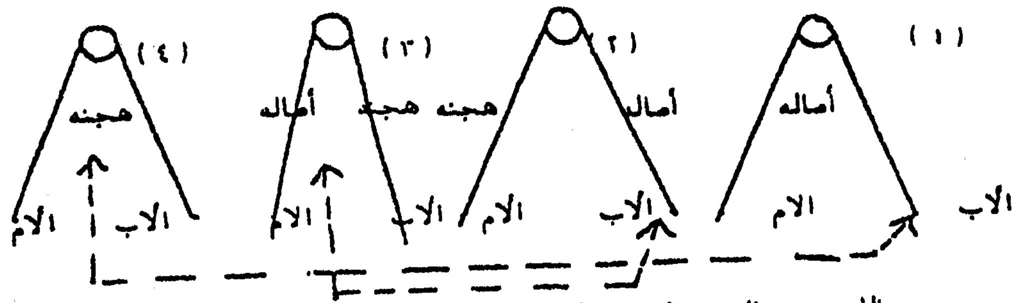
إن التسليم بفكرة الأنساب له ما يبرره فى عالم الانسان وفق أشكال خاصة من العادات والقيم ، ولكن كيف نسلم بالفكرة ذاتها فى عالم كائناته غير متميزة على هيئة الشعور ؟ وما الأسباب التى أفضت الى أن تنتقل أفكار خاصة بالسلالة والنقاوة من عالم الانسان الى عالم الخيل ؟

قد يقال فى الجواب ان البواعث مشتركة بين النسقين ، فحرص العربى على صراحة النسب فى الأفراد لايقل عن حرصه على تنقية سلالات الخيل ، لأن الفرس حيوان كريم على العربى ، وظهر جدير بأن يضن به لقيمته ، ولأنهم كانوا يفاخرون بها ويجعلون من اقتنائها معيارا للشرف والسيادة والعز والثروة ، وكثيرا ما كانوا يؤثرونها بما يضنون به على أنفسهم وأهلهم ، واعتبروها حصونا تقيهم الغوائل وتحميهم من كيد الأعداء .

هذه الأسباب مقبولة فى مجموعها ، غير أنها تفتقر الى الباعث الجوهرى الذى من أجله حفظ العرب أنساب الخيل . ويتمثل هذا الباعث فى قصدية التجاوز التى تجعلنا نتحرك فى عالم الآنية ، فالشعور الانسانى هو الذى قصد الى اتخاذ هذا المسلك التجاوزى عندما عامل الفرس وكأنه يعامل الفردية أو الشخصية .

وليس أدل على هذا العلو من أن العربى كان يسمى فرسه ويكنيه ويطلق عليه الألقاب ولا يعنى هذا المسلك المتجاوز — وهو ما نجد عند طوائف من الناس—أن الفرس قد انسلخ من طبيعته الحيوانية ،إنه مرتبط بالنوع الذى ينتمى اليه . كل ما هنالك أن الشعور وهو فى مدرج الأسطورية الشعرية القادرة على الاتحاد بالأشياء والاندماج بالروح الحيوانى ، وهو الذى أسقط ذاته على الفرس متساميا به صوب أفق شخصى ، جعله ينظر الى الاستطراق والى ما ينشأ بين ذكور الخيل وبين اناثها من سفاد ، بوصفه زواجا حيوانيا تحتفل به القبيلة ، وتقيم له شعائر التكريس والابتهاج ، وتسجله فى الذاكرة الجماعية الحية ، تسجيلا يستمر مع النتاج ، وينقل خصائص الدماء والسلالات والأعراق ، ويصل الأحفاد بالأجداد (٢١)

ان مسألة المعجم اللغوى عما تتعاطاه الجماعة من أعراف وتقاليد وشعائر وقيم ورموز وعلامات ومعتقدات ، كفيلة بأن تفضى الى تفسير الحياة فى مساقيها المادى والروحى ويمدنا هذا المعجم بطائفة من الألفاظ والدلالات التى تعبر عن التجانس السلالى فى عالم الانسان وعالم الفرس . وفى النسقين كليهما تشابه دلالى يعبر عن بنية رباعية مؤسسة على التبادل الذى تنعكس من خلاله العلاقات ، فيكون الاول عكس الرابع ، والثانى عكس الثالث على نحو ما هو مبين فى الشكل التالى :-



ويظاهرهذه البنية الرباعية للنسب فى العالمين ، ماتقدمة معجمات اللغـ
العربية من دلالات يتأتى معها وضع الألفاظ الخاصة بالنسب فى سياق موازنة معجمي
على النحـــو التالـــى:

الاصالـة فى الانسان :

تقول العرب نزع نزوعا ونزع الى عرق ،ونزعت به أعراقه ونزعته ونزعهـ
ونزع اليها . والنزيع الشريف الذى نزع الـى عـرق .

ويقال تقيل أباه وتقيضه وتصيره نزع اليه فى الشبه . وهو على آسان من أ
وهـــو على أعسان وآسال أى طرائقه وأخلاق . وفيه شناشن من أبيه أى طرائـــ

وهو مصاص قومه ومصاصتهم ومصاصهم أى أخلصهم نسبا ، وكذلك الصميم واللبـ
والصيابـــة .

ومعرق وعريق له آباء كرام ،وقح،ومحض ووسيط وبحت وقلب وقُلب ومقابل مدابـ
أى محـــض مـــن أبـــويـه

والصرخ والصريح والصراح والصادع الخالص النسب. والمرأة هجان والجمع هجائـ
أى كريمة النسـب لم يعرف فيها الاماء وكذلك الرجل والمصـدر الهجانة والهجانـــــة .

الاصالة فى الفرس:

فرس عتيق وطِرف نعت للذكور خاصة وكذا غطريف وغطارف وحت والسرحوب
والمعرب والشرجب النزائع من الخيل التى نزعت الى أعراق واحد ها نزيع ونزيعـــــة .

الهجنـة في الانسـان :ـ

الهجين الانثى هجينة ابن الأمة الراعية ما لم تحصن فاذا أحصنت فليس بهجين والجمع هجن وهجناء • والمكركس الذى ولدته أمتان أو ثلاث ، والمحبوس الذى أحدقت بة الاماء من كل وجه شبة بالحيس الذى يخلط خلطا شديدا ، والقن الذى ملك هـو وأبوه والجمع أقتان ، ويقال أقرف الرجل دنا من الهجنه •

والقلنقس العربى بين الهجينين ، وهو العربى لعربيين ، وجدتاه من قبل أبيه وأمه أمتان وامرأتة عربية ، والعقنقس الذى جدتاه من قبل أبية وأمة وامرأتة أعجميـات والأقفس من الرجال المقرف ابن الأمة وامه قفساء وهى الأمة الردئية اللئيمة •

الهجنـة فى الفـرس :ـ

يقال فرس هجيـن ومقرف ، والاقراف اللوم من قبل الفحل ،والهجنة من قبـل الحجر ، والفشاغ فى المهر كالاقراف ، والكدانة الهجنة (٢٢) •

ويتصل بالمعجم السابق معجم بأسماء مشاهير الخيل فى الجاهلية والاسلام ، نجده عند ابن الكلبى وابن قتيبة وابن الأعرابى وأبى عبيدة وأبى جعفر محمد بن حبيبالبغدادى واحمد بن حاتم وأبى محلم محمد بن هشام الشيبانى •

ويهدى التعرف على هذه الاسماء من حيث التصنيف الى موجهات يندرج تحتهـا التنوع الدلالى • وتئول هذه الموجهات منظورا اليها فى تضايفها مع الدلالة الى شعبتين فالدلالة التى يتضمنها الاسم اما أن تكون نهائية بشكل قطعى ، واما أن تتداخل فـى سياق التنوع بحيث تنصرف الى جملة من الوحدات •

وقد لاحظ العرب فى تسمية الخيل مساقات متنوعة ، وأطلقوا عليها الاسماء لاعتبارات مختلفة تدور على اطلاق الجزئى واجراءة على الكلى • وربما لاحظ العربى فى تسميـة فرسة اللون أو الصوت ، وربما انصرف الى جهة من جهات الدلالة على عضو أو حركـة وربما عول على التوسع المجازى والاستعارة والتشبية بالمستأنس والضارى من الطير والحيوان أو بالمعادن والاحجار ، أو بقداح المقامرة ، أو بالأدوية والأصباغ أو بغير ذلك مـن النبات والصخر والماء والرياح والكواكب •

وتوحى هذه الدلالات بأن للفرس فى وجدان العربى القديم تجليا كونيا ، يكاد يمتد بنموذجيته الى آفاق الحياة والأحياء ، ويكاد يتغلغل فى كينونات الأشياء ليلخص حركة الحياة ، وهو يضم فى اهابه السماء الى الأرض ، ويمزج بين الانسجام والقوه والاستئناس والذكـــــاء .

وتفسر الاسماء التى أطلقت على الخيل ، ما يطالعنا فى الشعر القديم من وصف وتصوير متنوع لهذا الحيوان ، مما يعنى ان تحليل الدلالات من وراء هذه الاسماء يفضى الى التعرف على هذا الحيوان ويهدى الى الوقوف على ماقيل فية من أشعار .

وتبين الجداول التالية امكانية تصنيف هذه الأسماء وفق دلالاتها ، وقد اخترنـــا طائفة منها معتمدين على أنساب الخيل لابن الكلبى فى معرفة الاسماء ، وعلى معجمات اللغة لمعرفة أنساق الدلالة .

(١) الدلالــــة الصوتيـــــة :ـ

الاســـم	الدلالـــــة
الضَّبْـــح	من ضبحت الخيل فى عدوها اذا اسمعت صوتا من افواهها ليس بصهيل ولا حمحمـه .
الهُجَيْـــس	الهجس النبأة تسمعها ولا تفهمها ، وعن ابـــن الاعرابى وقعوا فى مهجوسة من أمرهم أى اختلاط
الحَشْـــاء	مأخوذ من الحش وهو الربو والبهر والنهيج يعرض للفرس متى جد فى سرعتـه .

(٢) الدلالة اللونية :

الاسم	الدلالة
الديناري	فرس مدنر فية تدنير سواد يخالطه شهبة ، وقال أبو عبيدة المدنر من الخيل الذى فية نكت فوق البرش .
صهبي	الصُهْبة أن يعلو الشعر حمرةٌ وأصوله سود .
الأغر	مأخوذ من الغرة وهى بياض فى الجبهة .
اللّطيم	الذى يأخذ خديه بياض ، أو الذى سالت غرته لحق أحد شقى وجهه ، واللطيم التاسع من خيل الحلبة (تداخل دلالى) .
الجَون	الأسود اليحموى أو الإسود المشرب حمرة .
ذو الوقوف	مأخوذ من قولهم فرس موقف وهو أبرش أعلى الأذنين كأنهما منقوشتان ببياض ، والتوقيف البياض مع السواد .
ذو الخمار	من قولهم فرس مخمر أى أبيض الرأس وسائر لونه ما كان ، ولوحظ فى الدلالة خمار المرأة الذى يغطى رأسها .
ذو الوشوم	جمع وشم ، والوشوم العلامات .
الورد	لون بين الكميت والأشقر .
الحوّاء	الحوّة خضرة ضاربة الى سواد .

(٣) الدلالة المائية :

الاسم	الدلالة
سَبَل	السبل المطر ، وأسْبَلَت السماء وأسبل المطر اذا هطل ، وعن ابن الأعرابى السَّبَلة المَطْرة الواسعة .
الغمامة	....
الهطال	الهطل تتابع الماء المتفرق ، وقال أبوعبيدة هطل الجرى الفرس اذا أخرج عرقه شيئا بعد شىء .
الحُمَيْل	تصغير الحمل وهو السحاب الكثير الماء .
صَوْبَة	الصَّوْب نزول المطر ،وصاب الماء صبه وأراقه وصوبت الفرس أرسلته فى الجرى .
حَلاّب	تحلب العرق وانحلب سال ، وتحلب بدنه عرقا .
عزلاء	العزلاء فم القربة الأسفل والجمع العزالى ويقال للسحابة اذا انهمرت بالمطر حلت عزاليها .
العُباب	المطر الكثير ، وعباب السيل معظمه وكثرته وعبابه مَوْجُهُ ومن أسماء بعض الخيل اليعبوب وهو الجدول الكثير الماء المتدفق .
نادق	نَدَق المطر خرج من السحاب خروجا سريعا وسحاب نادق أى سائل .
السَّلِس	الذى يسح بالجرى كأن فيه سلاسة الماء .

(٤) دلالات مأخوذه من الحيوان والطير .

الاسم	الدلالة
السميدع	يقال للذئب سميدع لسرعته ، والسميدع الشجاع وهو السيد الجميل الجسيم الموطأ الأكناف
الأجدل	الصقر
غراب	. . . .
ذو الريش	. . . .
الطيار	. . . .
النعامة	. . . .
الظليم	. . . .

الاسم	الدلالة
العنز	الانثى من المعزى والأوعال والظباء والعنز ضرب من السمك ، وطائر من طير الماء والعنز الانثى من الصقور والنسور والعقاب
نعثلة	. . . .
ظبية	. . . .
الخزز	ولد الأرنب وقيل الذكر من الأرانب والجمع خِززة وخِزّان .

(٥) الدلالــــه النباتيــــه :

الاســـــم	الدلالــــــــه
الفينـــــان	مأخوذ من قولهم شعر فينان أى له فنون كأفنان الشجر والغينان الشعر الطويل الحسن •
العـــــراده	فى الاسم تداخل دلالى فالعرد كل شئ منتصب شديد ، والعرادة شجرة صلبة العود منتصبة مرتفعة والعرادة الجرادة الانثى ، وهو اسم فرس من خيـل ضبـة كانت لهبيرة بن عبد منـاف اليـربوعـى •
محــــاج	فية تداخل دلالى ، لان محج بمعنى أســرع ومحج الدلـو خضخضها ، ومحج العـود قشرة ، ومحج المرأة نكحها ومحج اللبن مخضة والريح تمحج الارض أى تذهب بالتراب •

(٦) الدلالــــه الكوكبيــــة :ـ

الاســـــم	الدلالــــــــة
بهـــــرام	بهرام اسم المريخ، وبهرمة النور زهره والبهرم والبهرمان المعصفر (تداخل دلالــــــى
الرقيـــــب	نجم فى المشرق ومنازل القمر،والرقيب الحـارس الحافظ وهو اسم السهم الثالث من قداح الميسر (تداخل دلالـــــى)
ناعـــــق	الناعقان كويكبان من كواكب الجوزا' وهما أضوأ كوكبين فيها ، أحدهما رجلها اليسرى والآخـر منكبها الايمن وهو الذى يسمى الهنعـــــة :

(٧) الدلالة الحركية ايجابا وسلبا :

الدلالة	الاسم
هو من الخيل الذى اذا اشتدبه الجرى وقف حتى تكاد تسبقه الخيل ، فاذاجرى سبقها.	الحرون
القصفة دفعة الخيل عند اللقاء.	قصاف
من نصب السير رفعة ، وقيل النصب ضرب من السيرلين ، أومن نصبت الخيل آذانها رفعتها والمنصب من الخيل الذى يغلب على خلقته كله نصب عظامه.	نصاب
أى خفيف سريع، والندب الفرس الماضى نقيض البليد	مندوب
الذى يسرع بعض الاسراع وينقض.	المنكدر
المتبختر ، ورمح خطار ذو اهتزاز.	الخطار
المتبختر المختال ، والمياس المائل.	مياس
الهَدَج ضرب من مشى الظليم وعدوه وعجلته.	هداج
الشرود والجموح الذى يمنع ظهره.	الشموس
الرعشن المرتعش وهو السريع لاهتزازه فى السير	رعشن
المناهبة المباراة فى الحُضْر والجرى ، وانتهب الفرس الشوط استولى عليه	مناهب

(٨) الدلالة العضوية إيجابا وسلبا:

الاسم	الدلالة
أعوج	هو ابن الديناري وهو فرس لبهرا' وأعوج الاكبر وأمه سبل من خوش وبار ،ركب صغيرا فاعوجت قوائمه.
ذو العُقّال	العُقال داء يأخذ الدابة فى رجلها تظلع بسبب ثم تنبسط وسمى بهذا الاسم:ادرء السوء عنه
الخذواء	من قولهم خذيت الاذن استرخت من أصلها وانكسرت مقبلة على الوجه،وعن الأزهرى الخذ الخفيفة السمع.
لاحق	اللاحق الضامر ، ولحق لحوقا ضمر.
قُرزل	القرزل الدابة الصلبة والفرس المجتمع الخلق الشديد الأسر
الحنفاء	الحنف الاعوجاج فى الرجل .
ذات الضُخم	لوحظ فى الاسم عظم الجرم وكثرة اللحم.
الضاوى	من ضوى أى هزل ، والضاوى الهزيل الخفيف
كنزة	من قولهم كنيز اللحم ومكنوزه،وتكنز واكتنز لح
الشوهاء	الشوه سرعة الاصابة بالعين ،وفرس شوها طويلة رائعة مشرفة ، وقيل المفرطة رحب الشدقين والمنخرين.
ذو العنق	تخصيص الرقبة لطول واعتدال فيها.
العَرَن	العَرَن تشقق يصيب الخيل فى ايديها وأرجله

(٩) أسماء مشتقة من قداح المقامرة وخيل الحلبة :

الاسم	الدلالة
المُعَلَّق	هو القِدْح السابع في الميسر وهو أفضلها ، اذا فاز حاز سبعة أنصباء ، وعليه مثلها ان لم يفز "مخداخل الدلالة"
الرقيب	لأنه اسم السهم الثالث من قداح الميسر ، وهو نجم في المشرق ومنازل القمر .
مناهب	من قولهم انتهب الفرس الشوط استولى عليه

(١٠) أسماء ماخوذة من أدوات القتال وأوقاته وهيئاته :

الاسم	الدلالة
الجمالة	هي علاقة السيف أو القوس
القِدْح	السهم قبله ان ينصل ويراش ، وقدح فرسه ضمره
صعدة	القناة المستوية
القويس	تصغير قوس
زيم	الزيم المتفرق ، والزيم الغارة
المُصَبِّح	من قولهم صبحتم الخيل وصبحتهم ، جاءتهم صبحا

(١١) أسماء مأخوذه من الادوية والاصباغ والاحجار والاخشاب :

الاســـــم	الدلالــــــــــه
التريــــاق	فارسي معرب ، والترياق دواء السموم .
القطـــرانى	القطران عصارة الابهل والارز ونحوهما ، يطبـــــخ فيتحلب منه ثم تهنأ به الابــل.
صفـــــا	الصفا العريض من الحجارة الاملس .
الـــوزر	وهو الملجأ ، واصلة المعقل والجبل المنيـع .
نبـــــاك	النبكة أكمة محددة الرأس ، وقيل هي الارض فيهـا صعـود وهبوط والجمع نبك ونباك ، والنبكة كـــل رابيـة محدده كأنها سنان رمح .
سُلَّـــــم	السلم السبب الى الشي ، وسلم فرس زبان بن سيار مر الحديث عنها ــ (هراوة الاعــزاب) .
الهـــراوة	
العصـــــا	يقال عصا اذا صلب ،عصوت القوم أعصوهم بمعنـــى جمعتهــــم .

(١٢) اسماء لوحظ فيها النســـب :ــ

الاســـم	الدلالــــــــــه
الصريـــح	أى المحض الخالـــص .
العطـــاس	(متداخل الدلالة) تقول العرب ظبى عاطـــس أى يستقبلـــك من أمامك ، والاسم عندئذ دال على الهيئـة وتقول فلان عطســه فلان اذا اشبهه فـــى خلقة وخلقـــة والعاطس الصبح ، وقد يرتبط الاســم بمعتقــد شعبى يتمثل فى تطير العرب بالعطــاس فيكون من باب ما يتشاءم منــه ويراد بــه التفاؤل
ناصـــح	هو الخالص ، وكل ما خلص فقد نصح ، وقد يـــراد بالاسم النسب أو اللون .
منـــازع	من قولهم فرس نــزيع أى شريف أشبــه أبويه .

إن هذا الحيوان يترامى فى ضوء ما تقدم من أسماء ودلالات صوب آفاق مـــن الحياة ويكشف نسيجه الحى فى الوجدان العربى عن أنماط من القيم والمعتقدات . وينـم هذا التنوع الدلالى عن أن الفرس ليس كغيره من مستأنس الحيوان ، ولا يدانيه فـــى قيمته الا الناقة التى آثرها العرب بمعجم لغوى متنوع.

... انه فى سياق ماأطلق عليه من أسماء حيوان نموذجى ، ولع الشاعر القديم بالتعبير عن نموذجيته ، ونحت له ــ اذ كان الوجدان العربى عاجزا عن الفن الذى يشكل المادة

الخام ــ تماثيل لغوية فى قصائد وأشعار تناقلتها الاجيال .

والفرس على حد ماتصوره الشعراء ، تنسجم فى خلقه الاضداد وتتوادد المتقابلات بل لعله كما السهم خيال الشعراء ، يلخص تاريخ مادب على رمال الصحراء من ظبــاء ونعام وسراحين ، وما حلق فى سمائها من ذوات الجناح .

وتطالعنا فى الكتب القديمة أحاديث انتحلها اللغويون والرواة للتعليم ونسبوها للجاهليين وغير الجاهليين ، وهى فى جملتها تقف القارى على علم العرب بالخيل ، وتظهره على معرفتهم النسب التى بتحققها يخرج الفرس الى حد التركيب المثالى ، ومتى اختلت هذه العلاقات آذنت بأن الفرس وقع بمعزل عن النموذجية ،إما لاقراف فى نسبه أو لعدم تناسب فى أعضائه .

وتحصيل نموذجية العلاقات العضوية الى ما يأتــى :ــ

(١) طــول العنق . قال امرؤ القيــس :

وَسالِفَةٍ كَسَحُوقِ اللَّيانِ أَضْرَمَ فيها الغَوِيُّ السُّعُر

(٢) هَرَتُ الشدقين واتساعها وطول الخدين . قال الشاعر :

هَرِيتٌ قصيرٌ عِذارِ اللجام أسيلٌ طويل عِذارِ الرسن

(٣) طول وظيفى الرجلين وقصر الساقين ، ولهذه الصفة شبهت بالنعام . قال أبو دواد الايادى :

لها ساقا ظَليمٍ خـا ضبٍ فوجِئَ بالرُعْب

(٤) قصر الظهر وطول البطن وطول الذراعين . ولهذه الصفات شبه بالظبى .

(٥) حدة القلب والطرف والمنكب وسمو الطرف .

(٦) عظم الفخذين وكثرة لحمهما وعرض وركية وشدة متنية وانتفاخ جنبية . قــال ابو النجم الراجــز :

مُنتفخ الجوف عريضٌ كَلْكَلُه

(٧) قصر عضويه ونجل مقلتية ولحوق أياطله وهى صفة الظبى ، قال امرؤ القيس:

له أيْطَلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ وإرخاءُ سِرْحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ

(٨) تمكن ارساغه وتحميصها فلا يكون على قوائمة لحم .

(٩) عرض صهوتة وطول الذنب فى كثرة الشعر . قال طفيل الغَنوى :ــ

وأذنابها وُحْفٌ كأن ذيولَها مَجَرُّ أشاءٍ من سميحةَ مُرْطِب

(١٠) غلظ الارساغ . قال الجعدى :

كأن تماثيلَ أرساغِه رِقابُ وُعولٍ على مَشْرَبِ

(١١) عرض الصدر ودقة الزور وهو الجؤجؤ . قال امرؤ القيس :

له جُؤْجُؤٌ حَشْرٌ كأن لجامهُ يُعالي به فى رَأْسِ جِذْعٍ مُشَذَّبِ (٢٣)

واذ حدد العرب هذه النسب والصفات التى تكون فى مجموعها نموذجيةالفرس ، ذكروا مايقابلها من سلوب فى الاعضاء وفى الحركة ، وهى تشكل البنية المضادة اللانموذجية - وليست هذه البنية عرضية أو قليلة القيمة مما يسوغ الانصراف عنها الى الحدود الموجبة ، وذلك أن السلب داخل فى تقويم الحدود الايجابية ، فالهيئةالمثلى للفرس لم تكن لتتحقق الالكونها من جهة التعين النموذجى سلبا لما عداها.

ان الفرس حيوان موزون ، يتولد انسجامه من تقابل نسبة المثالية التى تتراوح بين الطول والقصر والدقة والغلظ والامتلاء والتمحص، وهويضم فى اهابه عناصر الطبيعة المتقابلة ، ففى حركته من الماء سلاسته وانصابه ، وفى ذنبه وعرفه من النبات تغلله ونموه ،وفى حوافره من الصخر قساوته وصلابته ، وفى الاوضاع المختلفه التى يتخذها يتجسد أمامنا نبل رشيق ، وتختال زينة جياشة بالحياة.

وفى الفرس من التدرج الكونى ماجعل العرب يمتدون به الى عالم الكواكب والافلاك انه يظهر على خريطة السماء بوصفه من الحيوانات العلوية متخذا ثلاث صور : الاولى كوكبة قطعة الفرس وهى صورة رأس فرس وعنقها فيه عشرة كواكب ... والثانية كوكبة الفرس الاعظم ، كواكبه عشرون ، وهى على صورة فرس له رأس ويدان وبدن الى آخر الظهر وليس له كفل ولارجلان ...

واذا كانت الصورة الفلكية للفرس فى السماء تمتد على هذه الاشياء ، فلا عجب أن تتدفق صورته المثالية فى الارض بالمطر والماء ،ولامعلقة امرئ القيس لايتضح معناها الابذلك ، فهى أنشودة كونية وابتهال للاطلال ، والفرس فيها قطب الرحى تتدافع فى سياقه الانثى والوليد ، والصخرة والظبى ، والنعامة والذئب ، والصباح والليل وموج البحر ،لانها من معالم الحياة التى تريد أن تدمر الموت ، والبقاء الذى يغالب الفناء والصورة الثالثة من صور الفرس الفلكية كوكبة قنطورس ، مقدمه مقدم انسان من رأسه الى اخر ظهره ، ومؤخره مؤخر فرس من منشأ ظهره الى ذنبه (٢٤).

وكما ترامى العرب بالفرس الى السماء تدلوا به الى الارض فأطلقوا على أعضائه من أسماء الطير مايوحى بانه يشاكلها ، فكما تدرج الطير على الارض وتحلق فى الفضاء فكذلك الفرس فى صورته الفلكية وفى صورته الشعرية التى جعلته يهفو بتمثال طائر.

ولجرير قصيدة مشهورة أنشدها الاصمعى بين يدى الرشيد عندما جاء فرسه سابقا ، وفيها نظم لما فى أعضاء الفرس من أسماء الطير . قال جرير:

(١)	وأتب كالسرحان تم لــه	مابين هامتيه الى النسر
(٢)	رحبت نعامته ووفر فرخه	وتمكن الصردان فى النحر
(٣)	وأناف بالعصفور من سقف	هام أشم موثق الجذر
(٤)	وازدان بالديكين ململه	ونبت دجاجته من العذر
(٥)	والناهضان أمر جلزهما	فكأنما عثما على كسر
(٦)	وصفت سماناه وحافره	وأديمه ومنابت الشعر
(٧)	وسما الغراب لموقعيه معا	فأبين بينهما على قدر
(٨)	واكتن دون قبيحة خطافه	ونأت سمامته عن الصقر
(٩)	وتقدمت عنه القطاة له	فنأت بموقعها عن الحر
(١٠)	وسما على نقويه دون حداته	خربان بينهما مدى الشبر

وتشول تسمية أعضاء الفرس بأسماء الطير الى مستويين لغوى واسطورى . فأما اللغوى فالاصل فيه مايسميه المشتغلون باللغة المشترك اللفظى ، وهو اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل اللغة .

---

(١) الهامة من أسماء الطير وهى أعلى الرأس وأم الدماغ ، والنسر ماارتفع من بطن الحافر الى أعلاه .

(٢) النعامة جلده الرأس ، الفرخ الدماغ والصردان من أسماء الطير وهما عرقان فى أصل اللسان أخضران .

(٣) العصفور أصل منبت الناصية وهوأيضا عظم ناتئ فى كل جبين والعصفورمن الغرر أيضا

(٤) الديكان ، الواحد ديك وهو العظم الناتئ خلف الأذن ، الدجاجة اللحم الذى على زوره بين يديه .

(٥) الناهض فرخ القطا ، والناهضان من الفرس لحم المنكبين .

(٦) والسمانى من الطير وهو موضع من الفرس .

(٧) الغراب رأس الورك .

(٨) الخطاف موضعة من الفرس المركلان والسمامه من اسماء الطير وهى دائرة فى عنق الفرس .

(٩) القطاة من الفرس مقعد الردف ، والحر ذكر الحمام وهو من الفرس سوادفى ظهر أذنية .

(١٠) الخرب ذكر الحبارى وهو من الفرس الهزمة التى بين الحجبة والقصرى .

وقد نقل السيوطى عن ابن فارس فى فقة اللغة ، وابن دريد فى الجمهرة وابن خالوية فى شرح الفصيح ، والفارابى فى ديوان الأدب ، والتبريزى فى تهذيب الاصلاح وأبى الطيب اللغوى فى مراتب النحويين وأبى زيد فى النوادر ، مايؤكد وقوع المشترك اللفظى فى لغة العرب ، ومن هذا القبيل اطلاق اسماء الطير على أعضاء الفرس.

وقد اختلف فى أمر هذا الاشتراك ، فأما القول بامكانة فلجواز أن يقع من واضعين ، بأن يضع أحدهما لفظا لمعنى ، ثم يضعة الاخر لمعنى آخر ويشتهر ذلك اللفظ فى افادة المعنيين . وقد يكون المشترك من باب الابهام على السامع أن كان التصريح مظنة المفسدة ، واما القول بوجوب وقوعة فلأن المعانى غير متناهية والألفاظ متناهية ، فان وزع لزم الاشتراك (٢) .

ويعد هذا الاشتراك أمارة على ما يعرض للغة فى مراحلها من تطور وثراء ، نتيجة لعوامل متباينة أما المستوى الاسطورى لما أطلق على اعضاء الفرس من اسماء الطير فيمثل أولية أساسية ترجع الى الجذور الاسطورية المبكرة ، ففى هذه الاصول القديمة صورة نموذجية ارتفعت بالفرس من الارض الى السماء ، اما بتخيلة حيوانا مجنحا ، واما بالتعبير الرمزى الذى ربطه بالرعد والبرق ، وجعل منة الحيوان الذى شد عربة الآلهة السماوية . وعلى هذا النحو تشير صورة الفرس السماوى متمثلة فى حركة التحليق وفى خريطة المجموعات الكوكبية ، الى أنة حظى فى وجدان الشعوب القديمة بقدرهائل من الحب والتقديس .

(يتبع فى العدد القادم)